

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة الجمعة في المسجد الحرام بمكة المكرمة

لفضيلة الشيخ : عبدالرحمن السديس

بتاريخ : ٢٧ - ٢ - ١٤٢٣هـ

والتي تحدث فيها فضيلته عن : وسطية الإسلام

الحمد لله، تفرد بالربوبية والألوهية كمالاً، واختص بالأسماء الحسنى والصفات العلى جلالاً، أحمدته تعالى وأشكره على سوابغ نعمه إفضالاً، وجزيل عطائه نوالاً، وأسأله المزيد من فضله دعاءً وابتهالاً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بالتمسك بالإسلام ووسطية واعتدالاً، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، المبعوث بأوسط شريعة وأكملها خلافاً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أكرم بهم صحباً وأنعم بهم آلاً، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وسلم تسليمًا يترًا غدواً وأصلاً،

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله تبارك وتعالى، تحلوا بها أقوالاً وأفعالاً، فكم أورتت مالا، وتوجت جمالا، وشرقت خصالاً، ووقت زيغاً وضلالاً، وأصلحت حالاً ومالاً. أيها المسلمون، من الحقائق والمسلمات لدى ذوي البصائر والحجى أنه بقدر تمسك الأمم بمميزاتها الحضارية والتزام المجتمعات بثوابتها وخصائصها القيمية؛ بقدر ما تحقق الأمجاد التاريخية والعطاءات الإنسانية. ولئن برزت في عالمنا المعاصر صور وظواهر من الانحرافات تهدد الأمن الدولي وتعرض للخطر وعدم الاستقرار العالمي فإن مرد ذلك إلى التفريط في المبادئ الحضارية والتهاون بالمثل والقيم الإنسانية.

ومن يجيل النظر في جوانب عظمة هذا الدين الذي أكرمنا الله به وهدانا إليه -وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله- يجد أن هناك سمة بارزة وميزة ظاهرة كانت سبباً في تبوء هذه الأمة مكانتها المرموقة بين الأمم، ومنحها مؤهلات القيادة والريادة للبشرية، ومقومات الشهادة على الناس كافة. لعلمكم -يا رعاكم الله- أدركتم ما هذه الميزة الحضارية، إنها سمة الاعتدال والوسطية التي تجلّي صور سماحة الإسلام، وتبرز محاسن هذا الدين ورعايته للمثل الأخلاقية العليا والقيم الإنسانية الكبرى، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولما كان من الضرورة بمكان تحديد هذا المصطلح على ضوء المصادر الشرعية منعاً للخطط في المفاهيم واللبس في التصور، وحتى نقف على حقيقة الوسطية ومجالاتها لنظهر الصورة المشرقة لسماحة هذا

الدين، في الوقت الذي اشتدت فيه الحملة على الإسلام، ورُمي أتباعه بمصطلحات موهومة وألفاظ مغرضة لتشويه صورته والتفجير منه، تصيداً لأخطاء بعض المنتسبين إليه، في زمن انقلبت فيه الحقائق، وانتكست فيه المقاييس، وبُلي بعض أهل الإسلام بمجانبة هذا المنهج الوضاء، فعاشوا حياة الإفراط أو التفريط، وسلكوا مسالك الغلو أو الجفاء، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، والمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

معاشر المسلمين، ولقد عُني علماء الإسلام ببيان حقيقة الوسطية الواردة في آية البقرة وهي لا تخرج عن معنيين مشهورين يؤيدان معنى واحداً:

أولهما: ﴿وَسَطًا﴾ أي: خياراً عدولاً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، وقول الأول: هُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامَ بِحُكْمِهِمْ، وهو قول جمهور المفسرين، والذي رجحه الإمامان الحافظان ابن جرير وابن كثير رحمهما الله.

والثاني: أنهم وسطٌ بين طرفي الإفراط والتفريط، جاء هذا في سياق الامتنان على هذه الأمة المحمدية. والوسطية -يا عباد الله- منهج سلف هذه الأمة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هم وسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم"، ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله: "إن الشريعة جارية في التكليف لمقتضاها على الطريق الوسط العدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، فإذا نظرت إلى كلية شرعية فتأملها تجدها حاملةً على التوسط والاعتدال، ورأيت التوسط فيها لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يُرجع إليه، والمعقل الذي يُلجأ إليه"، ويقول الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله: "وعلى الجملة فالأولى بالمرء أن لا يأتي من أقواله وأعماله إلا بما فيه جلب مصلحة أو درء مفسدة، مع الاعتقاد المتوسط بين الغلو والتقصير"، ويقول الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله: "ما من أمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى غلو، وإما إلى تقصير، والحق وسط بين ذلك".

إخوة العقيدة، وتتجلى وسطية الإسلام في مجالاته كلها، ففي مجال الاعتقاد جاء الإسلام وسطاً بين الملل، فلا إلحاد ولا وثنية، بل عبودية خالصة لله في الربوبية والألوهية، وكذا في الأسماء والصفات وسط بين أهل التشبيه والتمثيل والتحريف والتعطيل. وفي القضاء والقدر وسط بين نفاة القدر والمغالين فيه القائلين: إن العبد مجبور على فعله. وفي مسألة الإيمان وسط بين من جفوا فأخروا الأعمال وأرجؤوها عن مسمى الإيمان وبين من غلوا فأخرجوا من دائرة الإيمان من عمل بعض المعاصي. ويلحق بذلك الحكم بالتكفير، فأهل الحق لا يكفرون بالذنوب ما لم تُستحل، كما لم يجعلوا المذنب كامل الإيمان، بل هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته. وفي باب النبوة والولاية والصحابة توسط فلا غلو فيهم غلوً من اتخذهم أرباباً من دون الله، ولا جفاء كما جفت اليهود ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، وأهل الإسلام الحق يتوسطون، فيؤمنون بجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وجميع كتبه، ويحبون أوليائه، ويترضون عن جميع صحابته رضي الله عنهم وأرضاهم.

إخوة الإيمان، وثمّت مجال آخر تتألق فيه وسطية هذه الأمة، في مجال العبادة ومراعاة مقتضيات الفطرة والتناسق البديع بين متطلبات الروح والجسد، بلا غلو في التجرد الروحي، ولا في الارتكاس المادي، فلا رهبانية ولا مادية، بل تناسق واعتدال، على ضوء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَبْتَعِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنَسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقد ردّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التنبُّل، وأنكر على من حرم نفسه طبيبات الدنيا قائلاً: ((أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له، لكنني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)) مخرج في الصحيحين، وعند مسلم وغيره: ((هالك المنتطعون))، وعنده أيضاً: ((إن هذا الدين يُسر، فأوغلوا فيه برفق، ولن يُشادّ الدين أحد إلا غلبه)).

وهكذا نأى الإسلام بأتباعه عن كل الكبوات والنبوات والهزات والهبوات التي تُخلُّ بغاية الوجود الإنساني، وتضيق حقوق الإنسان، وتفترط في تحقيق التوازن بين متطلبات روحه وجسده، حيث تأرجحت كثير من النظم المادية كما هو ظاهر في المدنية الغربية التي تنطلق من نظرات ومقتضيات مادية صرفة، حتى تتأدى عقلاؤهم ومنصفوهم بالحاجة إلى دين يحقق التوازن بين الرغبات والتناسق بين المتطلبات، ويرتفع بالبشرية إلى مستوى إنسانيتها وتحقيق قيمها ومثلها، وينتشلها مما تعاني منه من بؤس وطغيان وشقاء.

أمة الإسلام، ومن المجالات المهمة التي تبرز فيها وسطية هذه الأمة ما يتعلّق بالتشريع والتحليل والتحریم، ومناهج النظر والاستدلال، فتوسّطت الشريعة في هذه المجالات بين اليهود الذين حرّم عليهم كثير من الطبيبات وبين قوم استحلوا حتى المحرمات. والحكم بالتحليل والتحریم حق الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي منهج النظر والاستنباط وازن الإسلام بين مصادر التلقي والمعرفة، ووافق بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وعالم الغيب والشهادة، وإعمال النصوص، ورعاية المقاصد، واستجلاء القواعد، وحكم الشريعة وأسرارها، ووازن بين تحقيق المصالح ودرء المفسدات.

معشر الأحبة، وفي مجال الأخلاق والسلوك مظهرٌ من مظاهر الوسطية في هذا الدين، بين الجنوح إلى المثالية والواقعية، ووسطيةٌ تُركي المشاعر، وتُهدّب الضمائر، وتسمو بالتفكير والشعور، وتوازن بين متطلبات الفرد والمجتمع، وإعمال العقل والعاطفة، في تربية متوازنة، وتنسيق متنسق بديع، على ضوء المنهج النبوي: ((إن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه)) خرّجه أحمد ومسلم.

وفي النظام الاقتصادي وازن الإسلام بين حرية الفرد والمجتمع، فيحترم الملكية الفردية ويقرها ويهذبها بحيث لا تضر بمصلحة المجتمع، فجاء الإسلام وسطاً بين رأسمالية ترعى الفرد على حساب الجماعة، واشتراكية تلغي حقوق الأفراد وتملكهم بحجة مصلحة الجماعة.

وفي مجال الإنفاق تتحقق الوسطية في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا

وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿ [الفرقان: ٦٧]، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (هو الحسنه بين سينتين)، والمراد أن الإسراف سيئة والتقتير سيئة والحسنه ما بين ذلك، فخير الأمور أوسطها.

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وهكذا في مجال الحرية بين الفرد والمجتمع، حرية الرأي والفكر والسلوك وغيرها، جعل الإسلام ضوابط شرعية لهذه الحرية بحيث تكون ضمن دائرة المشروع ومجانبة المحذور الممنوع.

أمة الوسطية، وفي النظام السياسي جاء الإسلام وسطاً بين النظم، مبيناً حقوق الراعي والرعية، حاضاً على العدل والقسط، مُعلياً قيم الحق والأمن والسلام والسمع والطاعة بالمعروف، مترسماً المنهج الشوري المتكامل، سابقاً شعارات الديمقراطيات المعاصرة إلى تحقيق منافع البلاد والعباد، في بعد عن الاضطراب والفوضى، محاذراً الدكتاتوريات في الحكم والاستبداد في الرأي، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومما يجلي وسطية الإسلام جمعُه بين الأصالة والمعاصرة، تميّزه بالثبات والمرونة، وحسن التعامل مع المتغيرات، ووضع الضوابط للاجتهاد في النوازل واستيعاب المستجدات، فهو بثوابته وأصوله يستعصي على التميع والذوبان، وبمرونته يستطيع التكيف ويواجه التطور بلا جمود ولا تحجر، بل يبني الحياة على القواعد الشرعية والنواميس المرعية التي تستجيب لحاجات الأمة في مختلف الظروف والأحوال، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وبعد أيها المسلمون، فقصارى القول أن وسطية الإسلام شاملة جامعة لكل أمور الدين والدنيا والآخرة، بل إنها وجه من وجوه الإعجاز فيه وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهذه الوسطية تُعظم مسؤولية الأمة الإسلامية ودورها العالمي، فهي أمة الوسطية والشهادة على الناس ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، شهادة تُصان فيها الحقوق، وتتحقق العدالة، وتُحفظ الكرامة، ويُيسر السلام، وتُبنى الحضارة المعاصرة، بعد أن شقي العالم بألوان الصراعات، وأنهكت البشرية بأنواع من الصدمات، وتقاذفت الإنسانية أمواج من الأنظمة والأهواء، ومُزقت كياناتها في رحلة منهكة من الضياع، وهوةٍ سحيقة من الفناء، وبُور عميقة من التيه والعدم، وذلك بسبب ألوان من الصلف والتطرف والأحادية في الرأي والشطط في الرؤى والمواقف، ولئن آل حال العالم إلى ما نراه اليوم من تسلط وصراع حضاري خطير فإن الأمل -بعد الله- في أمة الوسطية والاعتدال أن تكبو من عثرتها وتفيق من غفلتها وتجمع من شتاتها، بعد أن عانت طويلاً من جراء تجاوزات بعض أبنائها والمحسوبين عليها عن منهج الوسطية في مجالات عقديّة وفكريّة وسلوكيّة، بل وثقافية وإعلاميّة، وأصبح بعض أبنائها يقتات من على فتات موائد الغرب في لون من ألوان التطرف الفكري، يقابله ردود أفعال مخالفة في الرأي، معاكسة في الاتجاه، فلربما سلكت مسالك التجاوز والشطط في تضخيم إعلامي مفضوح، حتى وُصم الإسلام بأخطاء هذا، وتقصير ذلك، ومن المقرر لدى النصفه أن خطأ الفرد في تطبيق نظام ما ليس عيباً في النظام نفسه، فأين المصادقية والموضوعية والواقعية؟!

فيا من تصمون الإسلام بالتطرف والإرهاب، هذا هو الإسلام في وسطيته وسماحته ويسره واعتداله، فأين هذا من الحملات المسعورة عبر وسائل إعلامية مأجورة؟! أين هذه السماحة من التطرف الصهيوني والصلف اليهودي الذي يبرز من خلال شلالات الدم المسلم المتدفق على ثرى فلسطين المجاهدة؟! أين هذه السماحة من التطرف الهندوسي الوثني على رُبى كشمير الصامدة؟! أين هذا التيسير من التطرف الإلحادي على أرض كُسفاً والشيشان المسلمة؟! أين هذا من المتلاعبين بالمصطلحات والألفاظ الذين أصبح عندهم المتطرف في قتل المسلمين وظلمهم وإرهابهم رجل أمن وسلام، والمظلومون المطالبون بحقوقهم الشرعية المقاومون للاحتلال ضد عقيدتهم وبلادهم ومن يساندهم في حملات إغاثية وتبرعات مادية وعينية إن هؤلاء في نظرهم إرهابيون متطرفون في شنشنة معروفة من أخزم والله المستعان.

ألا ما أحوج الأمة إلى سلوك منهج الوسطية في علاج كثير من الانحرافات في شتى المجالات، وهذا كله يلقي على كواهل علماء الشريعة ودعاة الإصلاح في الأمة المسؤولية الكبرى أمام الله، ثم أمام الأمة والأجيال التي تتشد سبيل الخلاص من إفرازات تجاوز منهج الوسطية المتألق، وكان الله في عون العاملين المخلصين لدينهم وأمتهم ومجتمعاتهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَقَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ تِلْكَمُ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي سيد المرسلين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولكافة المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه كان حليماً غفوراً.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، مَنْ عَلَيْنَا فَجَعَلْنَا أُمَّةً وَسَطًا، أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ، تَعَالَى أَنْ يَقُولَ غَلْطًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، تَقَدَّسَ أَنْ يَقْضِيَ لَغْطًا، وَأَشْهَدُ أَنْ نَبِيْنَا مُحَمَّدًا عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ الْمَنْزَلُ عَلَيْهِ قَوْلُ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَّبَعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَلَكُوا مِنْهَا وَسَطًا، فَلَا تَجَاوِزْ وَلَا شَطَطًا، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَحَثَّ فِي نَصْرَةِ الدِّينِ الْخَطِيءِ،

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، وتحلوا بالمنهج الوسط كما شرع الله، واستقيموا على الوسطية كما سنَّ رسول الله ﷺ، وسار على ذلك سلفكم الصالح عليهم رضوان الله.

أيها الإخوة في الله، ولم تقف وسطية الإسلام على أمور العبادات من طهارة وصلاة ونحوها فحسب، بل تعدتها إلى العادات والمعاملات واللباس والطعام والنوم وغيرها في تنظيم شامل لشتى مناحي الحياة. أيها الإخوة والأخوات، وثمَّتَ مجال آخر برزت فيه وسطية هذه الأمة في جانب من أهم جوانبها، ألا وهو الجانب المتعلق بالمرأة، فجاءت هذه الشريعة الغراء والمرأة مظلومة بين جاهليتين، فكرمتها وحفظت حقوقها، وسمت بها أن تكون أجيرة، وصانتهما من الوقوع في مستنقعات الرذيلة، وكفلت لها حرمتها الشرعية، ونأت بها عن مسالك التحرر من القيم والهبوط إلى برائن الإباحية والانحلال والانسلاخ من

الفضائل وسلوك مسالك التبرج والسفور والاختلاط المحرم.

غير أن ثمت ملحظاً أخيراً مهماً يا عباد الله، وهو أن الوسطية في الإسلام لا تخضع للأهواء والرغبات، فليست تنصلاً من الثوابت والمقومات، ولا تمرداً على المبادئ والأهداف والغايات، وإنما تضبط بضوابط الشريعة، فمن الناس من يحمل على كل ملتزم بدينه - لا سيما من أهل الخير والحسبة والإصلاح - ويصفهم بالغلو والتزمت، فمن يلتزم بالسنة باطنياً وظاهراً عندهم متحجر متشدد، ومن يدعو إلى الإسلام غالٍ منتطع، والغيورون عليه رجعيون متأخرون، أما المنهزمون المنفلتون من المثل المفرطون بالقيم المتلاعبون بالثوابت والمبادئ فهؤلاء عندهم متمتعون بسعة الأفق متحررون متورون متطورون متفتحون على الآفاق المعاصرة واقعيون في النظر والسلوك، ولعمرو الحق إن هذا نوع من التطرف المسموم والفكر المسموم في مقابل نوع غير متكافئ من الغلو المذموم، مما يحمل طلاب الوسطية على الاعتدال بين ذينك الطرفين، والدعوة موجهة من بلاد الوسطية حساً ومعنى مكاناً وزماناً عقيدة ومنهاجاً - زادها الله خيراً وهدىً وتوفيقاً - إلى أن يفىء العالم إلى ظلال هذه الوسطية المتألقة، ليحقق لنفسه ومن حوله الخير والسلام، وليعيش الناس في أمن وأمان وإخاء ووثام، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ألا وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على إمام الحنيفية، المبعوث بالاعتدال والوسطية، كما أمركم بذلك ربكم رب البرية، فقال تعالى في محكم تنزيله وأصدق قيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين وأشرف الأنبياء والمرسلين نبينا وحبينا وقوتنا محمد عبد الله ...